

حوار مع:

الدكتور محمد زهير البابا

أجرت اللقاء: سمرسلان

الدكتور محمد زهير البابا من مواليد مدينة دمشق .. حصل على شهادة الصيدلة والكيمياء من الجامعة السورية عام ١٩٤٥ م . أرسل في بعثة دراسية الى بلجيكا للتخصص في علم العقاقير والنباتات الطبية . حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم الصيدلانية من جامعة بروكسل ، فعين عقب عودته الى سورية مدرساً في كلية الصيدلة بجامعة دمشق عام ١٩٤٨ . ثم تدرج في سلك التدريس حتى نال رتبة الأستاذية عام ١٩٦٢ .

كان الدكتور البابا مولعاً بدراسة تاريخ الطب والصيدلة ، وحينما أوفد الى فرنسا متفرغاً للبحث العلمي ، بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٨١ ، أطلع على عدد كبير من المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ، فازداد شغفه بدراسة التراث العلمي العربي ، وقد قبل عضواً في الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب .

وبعد عودته من فرنسا انتدب استاذاً لتاريخ الطب والصيدلة وعلم النبات في معهد التراث بجامعة حلب . وهو متفرغ حالياً للبحث العلمي في كلية الصيدلة بجامعة دمشق .

(*) من مؤلفاته : ١ - علم تشخيص العقاقير ج ١ - ٢ صدر في عام ١٩٦٤ .

٢ - الدروس العملية لعلم العقاقير صدر في عام ١٩٦٥ .

٣ - تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة صدر في عام ١٩٧٥ .

كما قام بتحقيق كل من كتاب :

١ - اقرباذين القلانسي (تحقيق ودراسة) صدر في عام ١٩٨٣ .

٢ - من مؤلفات ابن سينا (تحقيق ودراسة) صدر في عام ١٩٨٤ .

وله أبحاث ودراسات متميزة في تاريخ الطب العربي .. وعلم الأدوية البسيطة والمركبة ، وحضور بارز في المؤتمرات العلمية العالمية . كما أشرف على عدة أبحاث ودراسات عليا لنيل درجة الماجستير والدكتوراة .

نال الدكتور جائزة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨٧ ، مكافأة على أبحاثه المنشورة في تاريخ الطب والصيدلة وعلم الكيمياء . كما صدر مرسوم بتعيينه عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٨ .

★ ★ ★

□ التعريف بالتراث العربي الاسلامي :

س - ما هي نظرتك للتراث بصورة عامة ، والتراث العربي بصورة خاصة ، وكيف تعرف به ؟

ج - يختلف مفهوم التراث بين الماضي والحاضر ، كما يختلف هذا المفهوم أحياناً من مفكر لآخر . ففي معجماتنا اللغوية الارث والتراث والميراث بمعنى واحد ، وهو ما يرثه الأبناء عن الآباء من مال وعقار وغيره .

ويقول بعض اللغويين أيضاً : الورث والميراث في المال ، والارث في الحسب .

أما في الوقت الحاضر فان كلمة التراث تقابل عند بعضهم كلمة Folklore الأجنبية ، ويعتبرها بعضهم الآخر مقابلة لكلمة Patrimony ، علماً بأن مدلولي هاتين الكلمتين في المعجمات الأجنبية مختلفان .

ان كلمة فولكلور الانكليزية تتألف من مقطعين : فولك وتعني شعب ، ولور تعني علم . واللفظة بمجملها تعني مجموع العادات والتقاليد والأساطير والأغاني والألعاب التي كان يمارسها أو يعتقدوها أحد الشعوب ، والتي لما نزل أصولها باقية عند هذا الشعب .

أما كلمة Patrimony فهي مشتقة من Pater اللاتينية والتي تعني الأب ، واللفظة بمجملها لها معنيان حقيقي ومجازي . أما المعنى الحقيقي فهو الميراث المادي الذي يحصل عليه المرء بعد وفاة أحد والديه ، أما المعنى المجازي فهو ما يعتبر ارثاً مشتركاً لجميع أفراد شعب ما ، مما خلفه له أسلافه من علوم وفنون وآداب .

واذا أردنا أن نعرف التراث تعريفاً جامعاً مانعاً نقول : هو تراكم حضاري وثقافي يتم عبر العصور وتتوارثه الأجيال . وهو يشمل أموراً معنوية تتعلق باللغة والأدب والشعر ، بالإضافة للتقاليد والعادات والمعتقدات ، كما يشمل مهارات عملية وفنية ومهنية . وعلى هذا الأساس يقسم التراث بحسب مدلوله الى عدة أقسام :

علمي ، فني ، ديني ، اجتماعي . . .

والتراث بأقسامه المختلفة لا يعتبر ملكاً خاصاً وثابتاً لكل شعب ، بل يتطور مع تطور أحوال الشعوب ، وذلك تبعاً للظروف البيئية والاجتماعية التي تعيش فيها ، وتبعاً للتقدم العلمي والثقافي لأفراد كل شعب . وكثيراً ما تتبنى الشعوب الضعيفة عادات وتقاليد الشعوب الخاضعة لنفوذها . كما أن حب التقليد والتطور كثيراً ما يسري الى أفراد

الشعوب القوية ، فتقتبس بعض العادات والتقاليد الموجودة عند شعوب أدنى منها حضارة . والمدارس الفنية الحديثة ، والتي تعنى بالرسم ، كالانطباعية والتجريدية والتكعيبية ، أو التي تعنى بالموسيقى والرقص ، كالجاز والروك أند رول ، تعتبر أمثلة حية لتقليد الشعوب المتحضرة لشعوب ابتدائية أو في طريق التطور .

أما التراث العلمي والمهني فهو من الأسرار التي كانت ولما تزال تحافظ عليها الشعوب. فعلم الطب والصيدلة والفلك والتعدين والصباغة وغيرها ، تعتبر مهارات واكتشافات حصلت عليها بعض الشعوب أو الأسر ، فاحتكرت مزاويلتها ، ولم تتنازل عنها وتكشف سترها ، لأنها مصدر ثروتها ومكانتها ، ولكن المغريات المادية أو تسلط القوى القاهرة ، جعل أصحاب تلك المهارات يتنازلون عن حقوقهم راضين أو مرغمين . وفي التاريخ أمثلة كثيرة على شعوب قوية استطاعت عن طريق الحرب أن تسوق الآلاف من المهرة من العلماء والفنيين والمهنيين ، ليعملوا في اعمار بلادها في مجال الزراعة والصناعة والبناء والزخرفة .

وللكلام عن التراث العربي سنقصر القول على القسم العلمي فيه فقط ، لأن الكلام عن جميع أقسامه ، ولو بصورة مجملة ، يحتاج الى عدة باحثين ، كل واحد منهم يبين أهمية هذا التراث بحسب اختصاصه .

كان الأوروبيون لأمد قريب يعتقدون أن مصدر الحضارة الانسانية وعلومها هو بلاد اليونان . ولكن حينما استطاع علماءهم في مطلع القرن التاسع عشر قراءة الكتابة الهيروغليفية في مصر ، والكتابات المسمارية في بلاد الشرق الأوسط ، تأكد لهم أن هذه البلاد هي التي أنبتت أقدم الحضارات ، والتي يعود تاريخها الى الألف الخامس أو الرابع قبل الميلاد . وفي كتاب تاريخ العلم لسارتون ، وقصة الحضارة لديورانت ، اعتراف صريح بذلك .

لقد ظهر أوائل فلاسفة اليونان وأشهر علمائهم خلال الفترة الممتدة بين القرنين السادس والثالث قبل الميلاد . وزار بعضهم أمثال تاليس وفيثاغورس بلاد الشرق الأوسط حيث استمدوا نظرياتهم الرياضية والهندسية. كما اعترف بعضهم أمثال أبقرات وجالينوس بحصولهم على كثير من الوصفات الطبية من المعابد المصرية . ويذكر العالم سارتون أن أول موسوعة وضعت في علوم البيئة النباتية والحيوانية والسكانية كانت من تأليف العالم الفينيقي ماجو ، الذي عاش في قرطاجة زمن الحكم الروماني .

مما لا شك فيه أن أهم الانجازات العلمية القديمة ظهرت في مدينة الاسكندرية ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وقد تمت في المعاهد التي نشأ فيها التعاون بين التفكير العقلي المجرد ، الذي اشتهر به فلاسفة اليونان ، مع المهارات الفنية والعملية التي ازدهرت في مصر وبلاد الشرق الأوسط . وكانت حصيلة هذا التلاقح ظهور علماء أفذاذ أمثال بطليموس القلوذي مؤسس علم الفلك ، وأرخميدس الصقلي مؤسس علم الخيل (الميكانيك) ، واقليدس الاسكندري واضع أصول الهندسة ، وغيرهم كثيرون .

بقيت مدينة الاسكندرية منارة للعلم منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن السابع

بعده ، فاستقطبت كثيراً من طلاب العلم الذين وردوا إليها من جميع البلاد المجاورة . لقد اشتهرت بصورة خاصة مدرسة الطب فيها ، وكان من ألمع خريجيها العالم جالينوس البرغامى الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد ، واستطاع أن يستفيد من جميع المؤلفات العلمية التي خلفها من سبقه من فلاسفة وأطباء اليونان والرومان . وقام بتصنيف مجموعة من الكتب الهامة بقيت مرجعاً لجميع الأطباء خلال العصر الوسيط .

قلنا ان بلاد الرافدين ووادي النيل كانا منذ الألف الرابع قبل الميلاد مهداً لحضارتين امتدتا في جميع الأطراف فعمتا بلاد حوض الأبيض المتوسط . وكانت الجزيرة العربية ولم تزل حلقة الاتصال بين هاتين الحضارتين ، الى جانب حضاراتها المستقلة التي قامت على أكتاف أبنائها من الأكاديين والكنعانيين والعموريين والفينيقيين والآراميين والعرب .

وحينما بدأت الديانة المسيحية بالانتشار في الجزيرة العربية وأطرافها كانت هنالك عدة لغات سامية منتشرة فيها : الحميرية في الجنوب ، والكنعانية في الشمال والعربية في الوسط ، والآرامية في الأطراف . ونظراً لأن هذه اللغات كانت مشتقة من لغة أم مجهولة المنشأ لذلك كانت الأقوام القاطنة في الجزيرة وأطرافها تتفاهم لحد ما فيما بينها .

عاش سكان سوريا في ظل الدولة الرومانية أولاً ثم في ظل الدولة البيزنطية ، لذلك كان من بين مثقفهم ، وخاصة بعض الرهبان النساطرة واليعاقبة ، من يتقن اليونانية أو اللاتينية . وقام بعضهم بزيارة الاسكندرية طلباً للعلم ، أو للحصول على ما في خزائنها من كتب علمية أو فلسفية . ويقول ابن العبري ان أقدم من نقل العلوم من اليونانية الى السريانية كان سرجيس الراسعيني ، وذلك في زمن الامبراطور جوستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، كما اشتهر أهرن القس أيضاً بترجمة كتاب يوناني في الطب الى اللغة السريانية .

□ دور الأطباء في ظهور التراث العربي :

س : بمناسبة الكلام عن الأطباء السريان واللغة السريانية ، ما هو برأيك الدور الذي قام به هؤلاء الأطباء ولغتهم في ظهور التراث العلمي العربي أو تطوره ؟

ج - يقول الأستاذ ولفغنسون ، مدرس اللغات السامية سابقاً في الجامعات المصرية ، نحن نعلم أن الآراميين انما نزحوا من الجزيرة العربية الى سورية ، ولكن من العسير جداً أن نعين البقعة التي كانوا يسكنونها في تلك الجزيرة . أما تاريخ هذه الهجرة فكان حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أي بعد مرور ألف وخمسمائة عام على استقرار الكنعانيين في فلسطين وسواحل سوريا . وقد ثبت لنا ، من كتابات مسمارية ترجع الى القرن الرابع عشر ق .م أن جماهير من بطون آرامية استقرت في أطراف دمشق ، وأن قبائل من العنصرين الكنعاني والآرامي استوطنت مناطق في جنوب الفرات ، حيث عرفوا باسم الأخلامو (أي الأصدقاء) .

ولكن في عهد الملك الآشوري تغلات بلاسر تقوضت الممالك الكنعانية والآرامية في سورية وانتهى حكمهم عام (٧١٠ ق .م) . الا أن ذلك لم يؤثر على انتشار حضارتهم ولغتهم اللتين

شاعتا بين جميع الشعوب التي سكنت في بلاد الهلال الخصيب . ومما يدل على تأثر الآراميين بالحضارة الكنعانية التشابه الكبير الموجود بين الخط الآرامي ورموز القلم الكنعاني .

لقد احتفظت بعض الممالك العربية ، وخاصة في تدمر والبتراء ، بكثير من الألفاظ الآرامية في لغتها ، كما يوجد أيضاً كثير من التشابه بين الخط الآرامي وكل من الخطوط المنقوشة على الآثار التدمرية والنبطية .

عاش سكان سوريا في ظل الدولة الرومانية الوثنية أولاً ، ثم انتقل حكمهم ليد الدولة البيزنطية المسيحية ، لذلك كان من بين مثقفيهم من يعرف اللاتينية أو اليونانية ، كما كان منهم من اعتنق المسيحية أو بقي على عبادة الأوثان .

ولما ازداد عدد المسيحيين واختلطت لغتهم الآرامية بكثير من الألفاظ الأجنبية أطلقوا على أنفسهم اسم السريان وعلى لغتهم اسم السريانية ، واعتبروا اللغة الآرامية لغة الوثنيين ، ممن لم يعتنق المسيحية . ظلت اللغة السريانية وسيلة التعبير السائدة في سورية منذ القرن الثالث للميلاد حتى الفتح العربي . وهي ما تزال تستخدم الى اليوم في الطقوس الدينية عند عدد من الكنائس المسيحية الشرقية .

ان أقدم وثيقة سريانية عثر عليها حتى اليوم تعود الى عام ٢٤٣ م ، ولكن هنالك نقوش سريانية وجدت على بعض الأحجار يعود تاريخها الى النصف الأول من القرن الأول للميلاد . ويقسم المؤرخون وعلماء اللغات السريانية الى لهجتين شرقية وغربية . وتحوي السريانية الغربية كثيراً من الألفاظ العربية ، كما أن اللغة العربية زاخرة بالألفاظ السريانية ، وخاصة ما يعود منها الى اسم بعض الخضار والفاكهة ، وأسماء الطقوس الدينية والمصطلحات الطبية والعقاقير وغيرها .

أما ما يتعلق بالدور الذي لعبه العلماء السريان ، وخاصة الأطباء منهم ، فيعود كما ذكرنا سابقاً الى منتصف القرن السادس للميلاد ، وذلك حينما بدأ سرجيوس الراسعيني بنقل بعض الكتب اليونانية الى السريانية . وفي موسوعة الحاوي للرازي يوجد بعض المقتطفات من كتاب له في الطب . وهذا يدل على أن كتابه هذا قد ترجم الى اللغة العربية ولكنه مفقود حالياً .

أما كناش أهرن القس فقد قام بنقله الى العربية طبيب من البصرة يدعى ماسرجويه ، وذلك في عهد الخليفة الأموي مروان بن الحكم (ت - ٦٥ هـ) . وبقيت النسخة المترجمة محفوظة في بيت مال المسلمين الى أن جاء الخليفة عمر بن عبدالعزيز (ت - ١٠١ هـ) فسمح بنسخ هذا الكتاب ونشره . وبهذه الصورة يعتبر كتاب أهرن أقدم مؤلف طبي دون باللغة العربية .

□ مصادر التراث الطبي وعلم الصيدلة :

س - ما هي مصادر التراث الطبي العربي ، وبخاصة في علم الصيدلة ؟ ومن هم أشهر من أسهم في تقدم هذا العلم ؟

ج - ان تاريخ الطب والصيدلة قديم قدم وجود البشر على ظهر الأرض ، ذلك لأن الطب وثيق الارتباط بحياة الانسان الذي ثبت وجوده منذ عدة ملايين من السنين ، كما أظهرت أبحاث علماء الجيولوجيا والآثار أن وجود العوامل المرضية ، من جراثيم وطفيليات وفيروسات ، قد سبق وجودها ظهور الانسان على سطح الأرض . لذلك نجد عند جميع الشعوب القديمة بعض الطرق المتشابهة بالعلاج ، ولكن هذه الطرق تطورت مع الزمن ، وذلك تبعاً للظروف البيئية والمعاشية ، الى جانب التطور الفكري والحضاري الذي عانته تلك الشعوب .

والعرب أمة تعتبر من أعرق أمم الأرض ، لأنها قضت مدة طويلة من الزمن في جزيرتها ، تقدر بالآلاف السنين . وقد احتكت شعوبها وقبائلها مع سكان بلاد الشرق الأوسط والأدنى عن طريق التجارة والغزوات والحروب . ونظراً لطبيعة جزيرتهم وبيئتها الفقيرة بالخيرات الطبيعية ، ولزيادة عدد السكان ، فقد قامت منها هجرات ، منذ فجر التاريخ ، باتجاه جميع أطرافها طلباً للرزق . وتعتبر اللغة العربية أهم رابطة جمعت بين هذه الشعوب وحفظت تراثهم الحضاري . كما لعبت دوراً أساسياً في نقل تراث أمم مجاورة ومتحضرة ، وخاصة في عصر ترجمة العلوم اليونانية والهندية عن طريق اللغتين السريانية والفارسية ، وقد امتد هذا العصر من القرن السابع حتى العاشر للميلاد . ويعود للغة العربية الفضل في احياء وحفظ التراث العلمي اليوناني وتطويره .

من المعلوم أنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تمتلك بعض المنجزات الحضارية لأمة أخرى ما لم تتوافر لديها الكفاءات اللازمة لتمثل تلك المنجزات وتطويرها ، كي تتلاءم مع أوضاعها الاجتماعية والبيئية . وقد أظهر العرب بتعاونهم واحترامهم لعلماء الشعوب التي اعتنقت الاسلام ، أو بقيت على ديانتها اليهودية أو النصرانية ، أنهم أهل لتحمل مسؤولية نشر وتطوير المنجزات الحضارية في مختلف العلوم والفنون .

فالتراث العربي هو جزء من التراث الانساني ، لأنه أدى ولما يزل دوراً أساسياً وهاماً في اغناء الحضارة الانسانية . ومن يتصفح كتب تراثنا يجد أمامه ينابيع غزيرة من المعارف ، كانت تعتبر مصدراً من المصادر الأساسية للعلوم البحتة ، كالجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء ، والعلوم التطبيقية كالطب والصيدلة والزراعة (الفلاحة) وغيرها .

لقد اشتهر خلال العصر الأموي بعض الأطباء السوريين منهم ابن أثال طبيب معاوية ، وأبو الحكم الدمشقي وابنه ، وفي عهد مروان بن الحكم ظهر ماسرجويه البصري ، كما اشتهر تياذوق طبيب الحجاج . وفي مدينة دمشق أنشأ أول بیمارستان في البلاد الاسلامية ، أمر ببناؤه الوليد بن عبد الملك (٨٨ هـ / ٧٠٧ م) ، وبنى الى جانبه دوراً لايواء العجزة والمقعدين والمجذمين والعميان .

الا أن ممارسة الطب والصيدلة لم تتقدم بصورة محسوسة الا زمن الخليفة أبي جعفر المنصور . فقد وفد الى بغداد عدد كبير من الأطباء والصيادلة الهنود والفرس والسريان ، وكان من أشهرهم أفراد عائلة بختيشوع ، الذين كانوا أطباء بيمارستان جنديسابور . ويعود اليهم الفضل في تطوير فن المداواة ، وتشجيع تجار المخطوطات على جلبها من بلاد الروم ، وترجمتها من اللغة اليونانية الى اللغتين السريانية والعربية . وفي عهد الرشيد تأسس أول بيمارستان في بغداد كما انشأت دار الحكمة ، والتي تحولت في زمن حنين بن اسحاق العبادي الى شبه مؤسسة لجمع المخطوطات وترجمتها ونسخها ونشرها .

لقد أنشأ حنين مدرسة للترجمة ، واستطاع الحصول على أمهات الكتب اليونانية ، في الطب والفلسفة والعلوم ، وتعاون مع تلامذته بتحقيقها ونقلها الى اللغة العربية ، وذلك بين القرنين الثامن والتاسع للميلاد . وبهذه الصورة انتشر طب أبقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان في جميع البلاد الاسلامية ، وهو ما يطلق عليه عادة اسم الطب التقليدي . كما انتشر الى جانبه طب شعبي ، ظهر في البلاد العربية والاسلامية بعد انتشار الدين الاسلامي ، وهو مقتبس من الأحاديث الشريفة المروية عن الرسول ﷺ والمتعلقة بالطبين الوقائي والعلاجي ، وهو ما عرف باسم الطب النبوي .

لقد عُرِف الطب بأنه علم يراد به حفظ صحة وبرء مرض . وفي شعائر الاسلام من وضوء وصلاة وصوم تطبيقات عملية يراد بها الى جانب العبادة حفظ الصحة ، كما أن في الأحاديث الشريفة كثير من النصائح التي تطلب من المسلم مراعاة النظافة في مأكله ومشربه ومستراحه ، كما تطلب منه الاعتدال في أفراحه ومتعه وأحزانه .

أما الأدوية التي ورد ذكرها في كتب الطب النبوي فقليلة العدد مأمونة التأثير ، وهي ما اعتاد العرب استعمالها في جاهليتهم وأقرهم عليها الرسول ، ومنها استعمال أوراق السنا والشمرة والحبة السوداء والقسط والحناء وغيرها . واستبعدت كثير من المعالجات التي لا يقرها العلم أو العقل ، كالايمان بالسحر والشعوذة والتمايم والمداواة بالخبائث ، والتوجه لغير الله ، وخاصة الايمان بتأثير الأجرام السماوية في حياة الانسان ومستقبله .

بدأ بعض أطباء البلاد الاسلامية بتصنيف مؤلفات في العلوم الطبية منذ القرن التاسع للميلاد - ويعد كتاب فردوس الحكمة ، ومؤلفه علي بن سهل الطبري (المتوفى عام ٨٥٠م) أقدم ما ألفه طبيب باللغة العربية . وقد استعان الطبري في تأليف كتابه هذا بكثير من المراجع اليونانية والهندية والفارسية ، كما استعان بمؤلفات بعض الأطباء المعاصرين له وخاصة يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق . وجعله في سبعة أنواع مقسمة الى ثلاثين مقالة تحتوي (٣٦٠) باباً . وجمع في مقالاته أبحاثاً عديدة ومتنوعة تعتبر بالنسبة لعصره على غاية الأهمية منها : بحث في طبائع الانسان والكون والأرض وما عليها من حيوان ونبات ، تكون الجنين والولادة ، وتدبير الأم والطفل وحفظ صحتها ، صفات الأعضاء والحواس ، والأمزجة والعوامل النفسية ، الأحلام وتعليلها الطبي ، أنواع الأغذية والأشربة ، دراسة جميع الأمراض التي تصاب بها أعضاء الانسان من الفرق الى القدم ، الحميات

بأنواعها ، الأمراض الجلدية ، مع الكلام عن الأدوية المفردة والمركبة المستعملة في مداواة هذه الأمراض .

لقد كان تأثير هذا الكتاب محدوداً ، والاقتباس منه أقل من غيره من الكتب الطبية التي ظهرت بعده ، وخاصة في غرب العالم الاسلامي . لذلك كان عدد مخطوطاته المحفوظة في المكتبات قليلاً ، علماً بأنه ترجم الى اللغة اللاتينية وطبع مرتين الأولى عام ١٤٨٤ م والثانية عام ١٥٤٢ م . وبقي هذا الكتاب الطبي الهام مجهولاً في العالم العربي حتى عشر المستشرق الانكليزي الدكتور ادوارد براون ، الأستاذ في جامعة كامبردج ، على نسخة مخطوطة منه محفوظة في المتحف البريطاني . فلما تصفحها أعجب بها ، وأراد أن يترجم الكتاب الى لغته . لكنه اكتفى بنشر مقالة منه ، ثم كلف الطالب محمد زبير الصديقي ، الذي كان يعمل بالبحث عن تاريخ الطب العربي تحت اشرافه ، أن يقوم بتحقيق هذا الكتاب . وقد تم ذلك عام ١٩٢٨ م ، ونال السيد الصديقي درجة الدكتوراه على عمله هذا . وعمل مديراً للشعبة العربية بجامعة لكنو في الهند .

وحينما جاء القرن الثالث للهجرة ، أو العاشر للميلاد، لم يتوقف عمل التراجمة، الذين نقلوا المؤلفات العلمية الأجنبية الى اللغة العربية ، ذلك لأن كثيراً من تلك المؤلفات أعيد النظر اليها اتماماً أو تصحيحاً أو شرحاً .

لقد حدث تغير هام في هذا القرن ، وهو ظهور طبقة ممتازة من العلماء العرب والمسلمين ، اطلعوا على الكتب المترجمة ، وتمثلوا ما جاء فيها من علوم . ثم قاموا بوضع مؤلفات عربية ، نسقوا فيها وأوضحوا ما ورد فيها من أفكار ، كما أضافوا اليها خلاصة تجاربهم الشخصية ، وحذفوا منها ما لا يقبله العقل أو تثبتته التجربة . وأثبت هؤلاء العلماء ، من مترجمين ومؤلفين أن اللغة العربية هي أهل لاستيعاب جميع المعارف البشرية ، وأنها لغة العلم والأدب .

ومما لا شك فيه أن ألمع طبيب ظهر في القرن العاشر هو محمد بن زكريا الرازي ، وقد قال عنه النديم الورّاق ، صاحب كتاب الفهرست « الرازي هو أوحده دهره وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء ، ولا سيما الطب » . كما أن المؤرخ الدكتور لوكلرك يقول « الرازي هو أول من ظهر عند العرب من كبار الأطباء . ونستطيع القول أنه لم يتفوق عليه أحد ممن أتى بعده أو حتى «ساواه» .

ألف الرازي مجموعة كبيرة من الكتب في علوم شتى . وقد قام العالم أبو الريحان البيروني بجمع أسماء هذه المؤلفات في فهرس ورد ذكره في كتاب عيون الانبياء لابن أبي أصيبعة ، وقد تجاوز عددها المائتي مؤلف بين كتاب وموسوعة ورسالة ، منها (٦٥) في الطب و (٢٣) في الكيمياء و (٣٣) في العلوم الطبيعية .

من الأقوال الشائعة على السنة بعض المؤلفين في تاريخ العلوم أن الطب أوجده أبقرات ، وشرحه جالينوس ، وجمعه الرازي، ورتبه ونسقه ابن سينا . وهؤلاء الأطباء الأربعة هم أعمدة الحكمة والطب خلال القرون الوسطى في الشرق والغرب .

لقد روى ابن أبي أصيبعة عن عبيد الله بن جبرائيل أن أبا بكر الرازي كانت له منزلة كبيرة في مدينة الري وسائر بلاد الجبل . فلما توفي ترك عدداً كبيراً من المسودات الحاوية على مقتطفات أخذت من مؤلفات طبية قديمة أو حديثة . وكان الرازي ينوي أن يصنفها كتاباً تحت اسم الجامع الحاصر لصناعة الطب، فلما وافاه الأجل تركها بدون ترتيب . فطلب ابن العميد من أخت الرازي أن تعطيه إياها ، فلما فعلت جمع تلاميذ الرازي من الأطباء الذين كانوا بالري فقاموا بترتيب الكتاب ولكن لم يحسنوا العمل فجاء مضطرباً . وبالنظر لضخامة هذا الكتاب وكثرة عدد أجزائه فقد كان نادر الوجود كاملاً . ويقال بأنه لم يدون منه سوى نسختين باللغة العربية . ويعترف ابن أبي أصيبعة بأنه لم ير أي نسخة منه ولا وجد من أخبر أنه رآه .

وحيثما سمع شارل آنجو ملك نابولي وصقليا بوجود نسخة كاملة منه في تونس ، أرسل سفيراً للملكها طالباً منه إهداءه نسخة من هذا الكتاب الذي شاع ذكره تحت اسم الحاوي . وحيثما حصل عليه أمر الطبيب فرج بن سالم أن يقوم بترجمته عام ١٢٧٩ م . فتعاون الطبيب المذكور مع عدد من أطباء سالرنو ونابولي في هذا العمل ، ويقال انهم أمضوا أكثر من خمسة وعشرين عاماً حتى استطاعوا انجاز ترجمته الى اللغة اللاتينية ، وقد أطلق عليه اسم Continens .

كان كتاب الحاوي من أوائل الكتب الطبية التي طبعت في أوروبا ، فقد صدرت منه عدة طبعات كان أولها في مدينة بريشيا بإيطاليا عام ١٤٨٦ م ، وآخرها عام ١٥٤٢ م . وهو يتألف من جزئين ضخمين ، وكان يعد أحد الكتب التسعة التي كانت تدرس في كلية الطب ببباريس عام ١٣٩٥ م .

في كتاب الحاوي للرازي يوجد عدة انجازات هامة تمت على يد مؤلفه :

أولاً : لقد استطاع الرازي أن يحصل على نسخ من كتب طبية لأطباء قديمين ومحدثين ، فاقتطف من مؤلفاتهم نبذاً تتطرق لمواضيع مختلفة ، جمعها الى بعضها البعض وجعلها على شكل أبحاث بين فيها آراء هؤلاء الأطباء في موضوع طبي معين . وفي نهاية كل بحث كان غالباً يدلي برأيه الشخصي ، داعماً لأقوال بعضهم ومخطئاً لأقوال آخرين ، معتمداً على تجربته ورأيه المستند على المنطق . وبما أن كثيراً من هذه المؤلفات قد فقدت ، كما أن كثيراً من أسماء مؤلفيها كانت مجهولة بالنسبة لنا لذلك يمكن أن نقول بأن للرازي الفضل في احياء ذكر هؤلاء العلماء والكلام عن مؤلفاتهم .

ثانياً : ومن منجزات الرازي الهامة أيضاً تأليف كتاب عنوانه «الصيدلة في الطب»، وهو أحد الأجزاء التي تتألف منها موسوعة الحاوي . لم يشأ الرازي أن تكون الصيدلة جزءاً من أجزاء علم الطب . بل اعتبر الصيدلة صناعة مستقلة ، وحالها كما يقول كحال الصناعات التي تخدم بعضها بعضاً لذلك يقول « لا يجوز أن يسمى أعرف الناس بأنواع الأدوية وأشكالها وألوانها ، خالصها ومغشوشها ، طبيباً ، بل انما يسمى الطبيب من عرف أفاعيل هذه الأدوية في أبدان الانسان » .

ثالثاً : الرازي أشهر طبيب بيمارستاني ، أي أنه اكتسب مهارته عن طريق العمل في البيمارسانات والاشراف على المرضى ، ومتابعة سير مرضهم وهو ما يعرف بالطب السريري . وقد استطاع الرازي من خلال عمله في البيمارستان أن يقوم بتأليف كتاب دعاه (ما الفارق) بين فيه الأعراض السريرية التي يمكن بواسطتها التفريق بين الأمراض المتشابهة الأعراض . كما أنه استعمل في مداواته أدوية مركبة أطلق عليها اسم (الأدوية البيمارستانية) ويقصد بها مجموعة من تراكيب الأدوية التي يكثر استعمالها في أوقات معينة من السنة ، حيث يصاب عدده كبير من الناس بنفس المرض . ويراعى في هذه الأدوية أن تكون عقاقيرها رخيصة الثمن ومتوافرة في الأسواق .

رابعاً : كان للرازي الى جانب اهتمامه بالطب هواية في اجراء التجارب الكيميائية . وقد استطاع عن طريق هذه التجارب أن يحصل على بعض المركبات الكيميائية المعدنية . فقام بتنقيتها وجربها في بعض الحالات المرضية وخاصة الأمراض العينية والجلدية فوجد لها بعض الفوائد الطبية ، لذلك يعتبر المؤسس لما يعرف باسم علم المداواة بالمواد الكيماوية Chimiotherapie .

خامساً : جمع الرازي كثيراً من الطرق المستعملة في تشخيص الأمراض ، وخاصة ما يتعلق منها بفحص القشع والبول والبراز، الى جانب فحص النبض ومراقبة الحرارة والبرودة وأيام البهران .

سادساً : استعمل امعاء القطط المجففة لتخفيف الجروح بعد العمليات الجراحية .

سابعاً : وصف بعض الطرق الدقيقة المفيدة في طرح الحصاة البولية ، وذلك عن طريق تفتيتها بواسطة زراقة تدخل في الاحليل .

ثامناً : لكي يساعد المريض الفقير على تدارك الدواء الذي يحتاج اليه دون الرجوع الى الطبيب ، وضع مؤلفاً أطلق عليه اسم (كتاب من لا يحضره طبيب) ذكر فيه وصفات بسيطة رخيصة الكلفة . كما له رسالة مشهورة ، لها الفائدة نفسها عنوانها (براء ساعة) وقد قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية الدكتور Guiges الأستاذ في الجامعة اليسوعية في بيروت سنة ١٩٠٤ م .

لقد صعب اقتناء كتاب الحاوي بسبب طوله المفرط وغزارة مادته ، سيما وأن الرازي جمعه ليكون مرجعاً شخصياً له ، وهذا ما دفعه الى اختصار مادته ليؤلف منها كتاباً دعاه المنصوري وأهداه للأمير منصور بن إسحاق بن إسماعيل ، وقد جعله في عشر مقالات تضم أهم موضوعات الطب السريري مع وصف موجز لبعض العقاقير ، فاشتهر كتابه هذا في أوروبا ونقل الى اللغة اللاتينية قبل عام ١١٨٧ م ، وانتشر تحت اسم Mandorem واستفاد منه كثير من أطباء الغرب خلال القرون الوسطى .